الموازنة وشعر امرئ القيس

إعداد

منى عبد العظيم محمد مكى

المقدمة

الموازنة: هي النقد الذي يدور حول موضوع واحد ،أو حول قضايا متقاربة، أو فكرة مشتركة، قصد التعرف على أفكار كل أديب ،و اكتشاف خصائص كل نص في معناه أو مبناه ، في صوره وأسلوبه ولغته المأخوذة من مادة واحدة.(١)

والموازنة ليست عملية فكرية و عقلية فحسب ، بل هي بالإضافة إلى ذلك عملية ذوقية و جمالية ؛ لأن الناقد أثناء ملاحظته للأعمال الإبداعية المشتركة و المتشابهة إنما يعتمد في ذلك كذلك على ذوقه الأدبي الذي يعطيه القدرة للقيام بعملية التقييم بين العملين .

فنقد الموازنة يقوم على الملاحظة و الفهم و الإدراك ثم الحكم ، وهو يميز بين العناصر المتشابهة و المختلفة في الموضوع الواحد للوصول إلى الحكم النهائي .

ويعتبر نشاط الموازنة نشاطًا عربيًا أصيلا له إرهاصات و امتداد في المورث الأدبي ،وفي التراث النقدي بشكل خاص. وقد ظهر متميزًا بطابع العفوية عمادها الذوق الفني الفطري التأثري الذي لا يستند على قواعد موضوعية معينة.

والموازنة بين الشعراء هو عمل لا يختصُّ به نقَّاد الأدب فحسب،لأنه يمثل مرحلة بدائية من مراحل الحكم التقويمي الجمالي بين الشعراء،وهو غالباً ما يتبع الذوق الفردي، ويقوم به كل القرَّاء،ويتحدث غير كتابٍ،عن الأحكام الجمالية التقويمية بين الشعراء، والتي قام بها أعلام لا يجمعون صفات الناقد، كالمحاكمة التي أجراها النابغة بين الخنساء وحسان بن ثابت.

وقد ظهرت الموازنة مبكرة في تاريخ الأدب العربي وبقيت تسايره على مرّ العصور إلى اليوم،وستبقى دائماً من وسائله النقدية والتاريخية.

١- راجع:الموازنات الشعرية في النقد العربي القديم/كمال عبد الباقي لاشين/دار البصائر للطباعة والنشر ٢٠٠٧م

وقد أذكت نار الموازنات تلك، قضايا ذات أهمية في النقد، منها ظهور شعراء النقائض وظهور الشعراء المجدِّدين، وبزوغ المعارك النقدية، مثل المعركة التي دارت حول إرجاع الجودة للفظ أم للمعنى، وبين أنصار الطبع والصنعة.

نماذج من شعر امرئ القيس في صورة موازنة:

والشواهد النقدية في التراث النقدي العربي تثبت أن عملية الموازنة و المفاضلة عملية قديمة قدم الشعر العربي،حيث تعود بدايتها إلى العصر الجاهلي ، إذ كثيرًا ما كان العرب القدامى يقومون بهذا النشاط عند الحكم على الشاعر أو على الشعر، أو عند التنويه بصاحبه لما في شعره من عناصر الجودة سواء في الصياغة أو في المضمون . ومما ذاع في كتب الأدب ما كان يجري في سوق عكاظ ، الذي سبق الإشارة إليه ، و ما كان يقوم به النابغة في هذا المجال . حيث كانت تضرب له فيه قبة حمراء من جلد فيأتيه الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، و كثيرًا ما وازن القدماء بين القصائد الشعرية و بين الشعراء ،واستخلصوا في الكثير من الأحيان بعض أوجه التشابه و الاختلاف . وقد نوهوا بالبعض بما كان لهم من براعة و إمكانيات خاصة ، ومن خلال عملية المفاضلة هذه أعجبوا ببعض القصائد واعتبروها درة أو يتيمة ،ولاحظوا بعض الخصائص التي تميز بها شاعر عن آخر ،فقد لقبوا النمر بن تولب بالكيِّس لحسن شعره وسموا طفيل الغنوي: طفيل الخيل لمهارته و براعته في وصفه لها .

وكانت موازنتهم تقوم أساسًا على ملاحظة حسن الصياغة و حسن الفكرة : فهل المعنى مقبول ، أو غير مقبول ، وهل النظم مقبول أو غير مقبول ، وإلى أي مدى تحقق ذلك الانسجام و الصقل المطابق للسليقة الغربية؟.

ومن مظاهر الموازنة عندهم ما ذكر عن أم جندب حين تنازع علقمة الفحل وامرؤ القيس . وزعم كل منها أنه الأشعر فتحاكما إلى أم جندب الطائية زوج امرىء القيس – التي ذكرنا من قبل– ومن صور الموازنة كذلك ما قام به ربيعة بن حذار الأسدي في حكمه على شعر شعراء تميم الذين كانوا في مجلس شراب .

واختلفوا إذ زعم كل واحد منهم أنه اشعر . فاحتكموا إليه ، فقرأ كل واحد منهم بعض شعره عليه ، وبعد أن وازن بين ما سمع من شعر ، أخذ يصف شعركل شاعر ومايتميز به ، فقال :"أما عمرو فشعره برود يمانية تطوي وتنشر وأما أنت يا زبرقان فكأنك جل حتى جزروا قد نحرت فأخذ من أطابيبها وخلطة بغير ذلك ، ولا ما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء ."[١]

نلاحظ أن أحكام الناقد فيها تشبيهات مستمدة من الواقع فكما أن لحم الشاة تتباين درجات جودته وحسن مذاقه فكذلك تفاوتت جودة شعر الزبرقان حيث فيه الجيد والردىء ، وقد شبه الناقد شعر عبدة بن الطيب بالمزادة التي أحكم خرزها دلالة على قوة بناء شكل شعره وصياغته ،حيث لاتوجد فيه اللفظة الزائدة، أو العبارة المهلهلة ،أي أن أسلوب شعره محكم رصين.

ولهذا النشاط حضور مستمر واسع في الحركة النقدية العربية حيث ازدادت أهميته بعد العصر الجاهلي وتوسع خاصة عند شعراء النقائض بسبب اشتداد جزيرة النزعة العصبية القبلية ، ورجوعها من جديد بعد أن خمدت في صدر الإسلام . بسبب اشتغال الناس بالفتوحات ، وما يلاحظ في موروثنا النقدي أن أكثر النقاد العرب القدماء كانوا يقرون باستقلالية البيت الشعري الواحد، لذلك كانوا ينشدون المتعة الفنية في كل بيته في معزل عن غيره من أبيات القصيدة

وأن البيت الجيد عندهم هو ما كان موجزًا يسهل حفظه، ويرسخ معناه في العقل و القلب، ولذلك نجد عندهم ما يسمى ببيت القصيد ، أو واسطة العقد، وأغزل بيت، وأهجى بيت، وأمدح بيت ، ووصفهم الشاعر فلان بأنه أشعر الشعراء.

غير إن هذا المقياس لم يكن هو المقياس الثابت دائمًا لدى نقاد الشعر كلهم، إذ هناك الكثير منهم من قال بضرورة التلاؤم والتلاحم بين العمل الأدبي بحيث يؤدي فيه كل بيت وظيفته كما تؤدي أعضاء الجسم فيتحقق بذلك التكامل العضوي.

١- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري/طه أحمد إبراهيم/دار الفيصلية السعودية/ صـ ٣٧

ونجد هذا اللون في عملية المفاضلة عند ابن سلام الجمحي في كتابه " طبقات الشعراء"، حيث راح من خلال عملية الموازنة يقسم الشعراء إلى طبقات جاهليين وإسلاميين، وإلى شعراء مدن وبادية، ولاحظ من خلال العملية كثرة شعر بعض وقلة شعر البعض الآخر، وتعدد الأغراض لدى البعض ومحدوديتها عند البعض الآخر ...إلخ. وعلى أساس عملية الموازنة وضع الشاعر في المكانة التي ينبغي أن يكون فيها حتى لا يقدم الناس الشعراء الضعاف على الفحول.

وقد فطن العرب الجاهليون إلى روعة النغم في الشعور، و جودة المعاني ،وعرفوا بطبعهم ما هو حسن من عناصر الشعر وما هو رديء ،وعرفوا أن من لصياغة ما هو سهل، وما هو جزل، وما هو عذب سائغ، وعرفوا أن من المعاني ما هو صحيح مستقيم، وما فيه زيغ وانحراف، عرفوا ذلك طبعًا لا تعلمًا، فلم يكن عجيبا أن يتكلموا فيعربوا وأن ينظموا فيصححوا الوزن دون أن يكون لهم عهد بنحو أو صرف أو عروض.

١- أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمري:

جاء في كتاب أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمري موازنة بين امرئ القيس وعبيد الأبرص، حيث اجتمعا واتفقا علي شذ القريحة في قول شعر خاص بالأوابد.

"واجتمع عبيد الأبرص وامرؤ القيس يوما فقال عبيد:كيف معرفتك بالأوابد فقال:قل ما شئت تجدني كما أحببت فقال عبيد:

ما حية ميتة قامت بميتتها درداء ما أنبتت نابا وأضراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الشعير تسقي في سنابلها قد أخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد:

ما السر دو البيض والأسماء واحدة لا يستطيع لهن تمساسا

فقال امرؤ القيس:

تلك السحائب والرحمن أنشأها روي بها من محمول الأرض أيباسا

فقال عبيد:

ما مر تجات علي هول مراكبها يقطعن بعد المدى سيرا وأمراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك النجوم إذا حانت مطالعها شبهتها في سواد الليل أقباسا [١]

٢- العقد الفريد لابن عبد ربه:

وننتقل إلي مثال آخر أكثر تفصيلا في كتاب العقد الفريد-ابن عبد ربه- حين حدثنا عن خبر كثير وسكينة بنت الحسين فقد دخل عليها فقالت له: يا ابن أبي جمعة أخبرني عن قولك في عزة فأنشد يقول:

وما روضة بالحزن طيبة الثري يمج الندي جثجاثها وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها[٢]

١- أشعار الشعراء الستة الجاهليين/اختيار العلامة يوسف بن سليمان بن عيسي المعروف بالأعلم الشنتمري/شرح وتعليق الأستاذ:محمد عبد المنعم خفاجي/الجزء الأول/الطبعة الثالثة/صـ٢٦:٢٧

٢- العقد الفريد/الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي/تحقيق:محمد سعيد العريان/الجزء الثاني/المكتبة التجارية/صـ٢١٨

وبعد أن فرغ من شعره قبحته سكينة بنت الحسين علي شعره وفضلت عليه قــول امرئ القيس حيث رأته أفضل معنا وأكثر مناسبة:

ويحك! وهل علي الأرض زنجية منتة الإبطين توقد بالمندل الرطــب نارهــا إلا طاب ريحها؟

ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس:

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب[١]

٣- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي:

وفي كتاب "طبقات فحول الشعراء"ذكر ابن سلام الجمحي موازنة بين امرئ القيس والنابغة، حول صورة الليل في بيتين لكلاهما فيقول امرؤ القيس:

فيالك من ليل،كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلي صم جندل

وقال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وغن خلت أن المتنأي عنك واسع[٢]

وقد زعم بعض الأشياخ أن بيت النابغة أحكمها،إلا أن محمد بن ســلام الجمحــي كان له رأيا آخرا حول هذه الموازنة وتلك الأبيات،فهو لا يــري وجهًــا للتخييــر والموازنة، فالبعد كل البعد بين سياق ومعني كل منهما،فامرؤ القيس أراد بطء

١- العقد الفريد/الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي/تحقيق:محمد ســعيد العريــان/الجزء الثاني/المكتبة التجارية/صــ٢١٨

٢- طبقات فحول الشعراء/محمد بن سلام الجمحي/ قرأه وشرحه:محمود محمــد شاكر/الســفر الأول/صــ٨

الليل وثقله عليه،أما النابغة أراد معنًا آخر يخالف ما أراده امرؤ القيس ، ويرجع هذا إلي مناسبة الأبيات ،فقد قال النابغة هذه الأبيات لمدح واسترضاء النعمان بن المنذر،ولنترك المجال لابن سلام الجمحي ليذكر لنا رأيه في هذه الموازنة كما أراد هو:

"وللشراح كلام كثير، ولكنه كلام! قال بعضهم:لا معني لتخصيص الليل لأن النهار يدركه كما يدركه الليل.ثم تراجعوا القول بينهم بما لا غناء فيه،فإن النابغة يقول للنعمان بن المنذر:

فإن كنت لاذو الضغن عني مكذب ولا حلفي علي البراءة نافع

ولا أنا مأمون بشيء أقوله وأنت بأمر لا محالة واقع

يقول:فإن كان شأني أنا- فيما رماني به عدوي عندك- أن لا أجد منك إنصافا ولا حيلة،فلا الواشي المضغن مكذب لما تعرف ضغنه وعداوته،ولا حلفي لك علي براءتي مما قذفني به ينفع،ولا أحسن ما أحتال به من القول يجدي علي في ابتغاء مرضاتك حتى أنال الأمن من

سطوتك،وكان شأنك أنت أنك قد طويت عزمك علي الإيقاع بي لا محالة،ولا مهرب لأحد مما تريد- فإنما مثلي في كل هذا ومثلك:كسائر نهارًا في أرض مرهوبة مخوفة ،لا ينجو أحد من غوائل ليلها مهما حرص واحتال....وإنه خليق أن يخلس منها قبل أن يدركه،ولكن الليل مدركه لا محالة بغوائل لا ينجو عليهن ناج أبدًا.

بهذا نعلم أنه لا وجه للتخيير بين البيتين،إلا أن يراد بالتخيير الموازنة بين قدرة الشاعريين في البيان وحده."(١)

---

(١)طبقات فحول الشعراء/محمد بن سلام الجمحي/ قرأه وشرحه:محمود محمد شاكر/السفر الأول/صـ٨

ثبت بالمصادر والمراجع

أولا:المصادر:

١- أشعار الشعراء الستة الجاهليين/اختيار العلامة يوسف بن سليمان بن عيسي المعروف بالأعلم الشنتمري/شرح وتعليق الأستاذ:محمد عبد المنعم خفاجي/الجزء الأول/الطبعة.

٢-طبقات فحول الشعراء/محمد بن سلام الجمحي/ قرأه وشرحه:محمود محمد شاكر/السفر الأول.

٣-العقد الفريد/الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي/تحقيق:محمد سعيد العريان/الجزء الثاني/المكتبة التجارية.

ثانيا:المراجع:

١-تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري/طه أحمد إبراهيم/دار الفيصلية السعودية.

٢-الموازنات الشعرية في النقد العربي القديم/كمال عبد الباقي لاشين/دار البصائر للطباعة والنشر.